بين الحقيقة والخيال :

# صـــديق . !

الأستاذ محمد محمد الأبشيهي

خلوت إلى نفسي يوما أسائلها : « أين هو الصديق الذي يسكن إليه قلبي ، وتهدأ حياله نفسي ، فيصفيني وده ، ويمنحني مما يمنع منه نفسه ؟ فقد بلوت من خير الناس وشرهم ، ما يوشك أن يزهدني في عشرتهم ، ويجنح بي إلى العزلة عن هذا المجتمع الصاخب ، وحاولت أن أصطفي من الأصحاب من يفرج أمري ، ويكشف لي وجه الصواب في هذه المشكلة العاصية ، فإذا يداي تصفران ، وإذا أنا أخلد إلى الراحة في ظلال اليأس ، وإلى الهدوء على بساط الشوك .. وسألت نفسي .. ربما كانت النفعية الجامحة والمادية اللاهية ، هما أس الداء ، وأصل البلاء ، حين ينظر الصديق من زاويتها إلى الصديق ، فكلما تحدر إليه خيره هش له وبش ، ولقيه باسم الثغر ، مشرق المحيا ، فهو صديق العمر ، وشقيق الروح ، وإلا أنكره ، فغاضت الابتسامة ، وفتر اللقاء وتقطع بينهما ، وحال الأمر إلى عداوة ، وأشباه هذا هم الكثرة الكاثرة فيمن يلاوونني ، حتى الذين ينالهم رفدي ، لا أحس لما يبدونه نحوي بحرارة ، ولا لما ينسجونه حولي بصدق ، وأنظر يوما فإذا بي أنشد :

« إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا »

وأتناول بيدي مصباح ( ديوجين ) أفتش به في ثنايا الزمن ، عن بغيتي من هذه الحياة ، ولكن .. هيهات ! ... ولبثت كذلك حينا من الدهر ، يمر بي في طوافي أشتات من الناس ، تباينت طباعهم ، وتلونت مذاهبهم ، لا يحسون بي ولا أحس بهم ، لبعد ما بيني وبينهم ، فما جامعة تجمعنا ، في الرأي والفكر والذوق ، أراهم من غير جنس وإن كانوا بشرا ، والمح على معارفهم لؤم الطباع في ثنايا الإشراق ، وسمات الطمع في مخايل الرضى ، فلويت عنقي ، وأشحت بطرفي ، وطويت عنهم كشحا ، وفزت من الغنيمة بالإياب ، بعد رحلة لاغبة ، وجهاد واصب ، و .. وشعرت بيد تربت على كتفي . وأنفاس حانية ، ترف على قلبي ، فأحسست برد الراحة يسري في أوصالي ، وغطت النعمى بغمر جوانحي . قال — وقد مثل حيالي قائما — أنا إذا ضالتك المنشودة . وأملك المفقود ، وأملك أن تجد العوض في شخصي من أحلامك الذاهبة ، فأقتا حاجتك ، وأدمل جرحك ، فتنأى بنفسك عن مواطن اليأس ، وتعلم أنه ما زال في الدنيا صديق ، ترتاح له ، وتبلو من سجاياه ما تقربه عينك ، ويثلج به صدرك . ستقودني إلى حيث تريد ، وستلقاني مطواعا ذلولا ، لا أبعثك على غضب ، أو أشرف بك على بأس ... فصدقته حين لمحت في حديثه دلائل الصدق ، وشمت من لهجته ملامح الجد ، وأنست به وسكنت إليه ، وجلت به في ميادين الحياة جولات موفقة ، وعشت به زمنا ليس بالكثير ، حدثت نفسي في خلاله أن أعفي كل أثر لحكمي السابق على الصديق ما دام في الناس أمثال هذا الذي فني في شخصي ، وكان لي أطوع من بناني ، وألزم من ظلي ، إذاً فلقد تجنيت على الإنسانية ، وأجرمت في حق الإخاء ، فهذا صديق يهفو إلى الخير لوجه الخير ، ويطرب بالوفاء لأجل الوفاء ، وإذاً فلتهدأ بلابلي ، ولتمض الحياة قدما في كنف الصداقة الصادقة ، وظلال العيش الرغيد ! .. ورأيته يوما — على غير عادة — عابس الوجه ، ترى ميناه بالشرر ، منتفخ الأوداج ، يكاد يتميز من الغيظ ، فابتدرته : « ما بالك » . فأجاب — في غير تحفظ ولا استحياء — لقد خاب أملي فيك ، وصوح عود الصلة بيني وبينك ، فما أنا بالذي يستمسك بك ، وقد نهشت عرضي ، وجحدت فضلي ، وأذعت في الناس بأحاديث السوء من خدنك الذي غره فيك حسن السمت ، واصطناع الوقار ، فقاطعته قائلا : « على رسلك يا صديق ، فلماذا أن تكون سماية حاسد ، أو زراية جاهل . وما حسن أن تجبهني بالثورة ، وتطلع علي بالعنف ، قبل أن تتبين » فأصم أذنيه ، وولى مدبرا ولم يعقب ، وحدثت لنفسي أنني لم أتزحزح قيد أنملة عما رسب في أغوار نفسي عن الصداقة والأصدقاء . وإذاً فالمشكلة ما زالت قائمة ، ولا أبرح أتلمس الصديق الصدوق بين الحقيقة والخيال ، فياليت شعري من يدلني عليه ، فينقذني من ألم مرمض ، وأسى لا يريم ، إن بين اليأس والأمل صراعا ، وفي النفس من هذا المجتمع المريض لوعة وحيرة

محمد محمد الأبشيهي